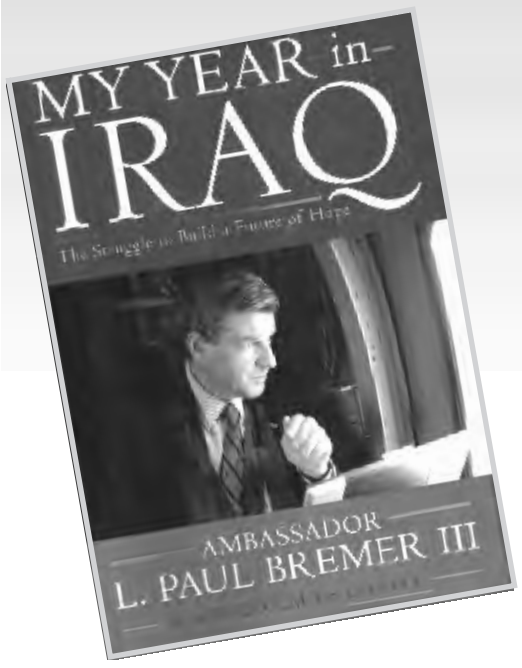

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة /د. عابد اسماعيل

(الحلقة الرابعة)

"شكراً لكم جميعاً،" قلتُ. كان الوقتُ متأخراً، وكنت أحتاجُ لبضع ساعات من النوم لمقاومة دوار الطائرة. "سيكون لدينا اجتماع، غداً، لكامل أعضاء الفريق، في الساعة السابعة صباحاً."

عُينت لنا، أنا والمساعد الخاص لدونالد رامسفيلد، لاري دي ريتا، غرفة نوم صغيرة تحاذي "مهجع الأولاد" المؤقّت، وهي مساحة أُفردت للموظفين المدنيين في الطابق الثاني. وجدتُ فراشاً، نُصبت فوقه، على إطار، شبكة ضدّ البعوض. مروحة عاجزة، انتصبت قرب النافذة المفتوحة، ومنعت عملياً دخول النسيم الواهن. لكننا كنا محظوظين: فالجنود الأدنى تمّ ايواؤهم، أو حشرهم، في خيامٍ بنّية اللون، تصلح لكلّ الغايات، زُرعت في باحة القصر، التي لا يزورها الفيء.

وفيما كنت أقفُ بجانب فراشي، نظرتُ إلى الأسفل، ولاحظت أنّ حذاء حلتي السوداء مغطّى بغبار أسمر، كانت قد نثرته في أرجاء بغداد ريحُ الشمال، أو آخرُ عاصفة رملية هبّت. علاقاتُ بنطلوني الأسود كانتْ هي الأخرى مكسوة بالغبار. معظم موظفينا، من رجال ونساء، كانوا يرتدون ثياباً عفوية، وهذا بمثابة استسلام للرمل والحرارة، ووسائل الغسيل البدائية. (كان علينا أن نضع غسيلنا الوسخ فوق طاولة نقالة- وثمة عبارة مكتوبة تقول: "أفرغ جيوبك من الذخيرة").

لكنني تعمّدتُ الاستمرار بارتداء حلة سوداء، مع قميص أبيض، وربطة عنق. فأنا مبعوث الرئيس الشخصي إلى شعب العراق، ولستُ فنياً، ببذلة صيد مجعّدة، وقبعة بيسبول. منذ أن تولّيت مهماتي في آسيا وأفريقيا كديبلوماسي شاب، تعلمتُ أن المسؤولين المحليين- حتى أساتذة القرى يرتدون بزات رقيقة وربطات عنق باهتة،- كانوا يختارون ملابسهم وفقاً لموقعهم في المجتمع. كنتُ أشعر، بقوة، أنها علامة احترام للشعب للعراقي أن أرتدي ملابسي بطريقة تناسب تماماً موقعي.

وبالرغم من أنّ بزاتي استطاعت أن تقاوم الغبار، لكن الأحذية الرسمية لم تستطع النجاة في بغداد. متعب كما هو عليه حالي، أدركتُ فجأةً، فيما كنتُ أجهّز نفسي للسرير، أن لدي حلاً.

كنت أفكّر بحفلة الوداع العائلية قبل ثلاثة أيام. كان أولادنا قد جاءوا بسياراتهم للانضمام إلينا من أجل السلطعونات الزرق على الشرفة، في ميرلاند، هذا المكان الذي شهد العديد من حفلات عيد الميلاد، وتجمّعات الرابع من تموز. بقربي كان يجلس بول، وزوجته، لورا، وأول حفيدة لنا، صوفيا، التي لم يتجاوز عمرها عاماً واحداً. ابنتنا وزوجها كانا يجلسان بالقرب من فرانسي. كنا جميعاً منهمكين في تناول صدفات السلطعون، فيما كانت البيرة الباردة، والنبيذ الأبيض تتدفّق. خفّفت قرقرةُ صوفيا وحماسها الحزنَ المبطّن للمناسبة. كان صعباً عليّ أن أتقبّل فكرة الابتعاد عن عائلتي الحبيبة لوقت طويل. ستكون الطفلة قادرة على الكلام في المرة التالية التي أراها فيها. غالباً ما كنتُ أغمضُ عيني لأمنع انهمار الدموع.

الشيء الوحيد الذي جعل المغادرة محتملة هو معرفتي أنهم سيذكرونني في صلواتهم، مثلما كنت أفعل أنا، وبأن إيماننا المشترك بأنّ الله، الذي طلب منا أن نقوم بهذه التضحية، سيمنحنا القوة لتحمّلها.

بعد حفلة العشاء، وزّعت العائلة هداياها عليّ. إحداها صورة لصوفيا داخل إطار ملون. حين أضغط على طرفها، تتصاعد مناغاتها الجذلة من قرص إلكتروني صغير ملصق خلف الصورة.

بعدئذٍ ناولني بول صندوقاً وقال، "هذه ستكون عملية جداً."

في الداخل كان يوجد زوجا أحذية من ماركة تيمبرلاند، وملاحظة مكتوبة تقول: "اذهب وارفس قفا أحدهم، يا أبي."

سوف أبدأ بارتداء هذا الحذاء غداً، فكّرتُ في نفسي، وأنا أواجهُ حرارة أوّل ليلٍ لي في بغداد.

قبل أنْ أخلد للنوم، جلستُ خلف مكتبي، وفتحتُ حاسوبي الصغير المحمول، المزود ببطاريات، ورحتُ أكتب رسالتي الإلكترونية الأولى (إلى فرانسي، على ضوء قنديل المعسكر الفوسفوري الباهر. وخلال ما يأتي من شهور، كنتُ أرسل رسالة واحدة إلى فرانسي، كل ليلة، مهما أكن تعباً أو تكون السّاعة متأخرة. كانت تلك وسيلة لابقائنا على تواصل، بالرغم من المسافة التي فرّقت بيننا. في هذه الليلة الأولى، لم يكن لي أن أعلم أن هذه الرسالة ستصل، عبر هذه المتاهة غير المألوفة من الاتصالات العسكرية.

بعد أن لخّصتُ الطيف الواسعَ من الانطباعات التي تشكّلت لدي خلال الست والخمسين ساعة الماضية، ختمتُ بمقطع عن بيتي الجديد.

لا شك في أنّ حالة القصر أفضل الآن مما كانت عليه قبل سبعة أيام. لدينا بعض الكهرباء (مولّدات)، بضعة حمامات مع كميات متقطّعة من المياه الجارية. لا توجد مكيفات هواء، وهذا سيكون بمثابة مشكلة بعد حوالي الشهر (وصلت درجة الحرارة إلى ١١٥ فهرنهايت في البصرة اليوم). بدأوا يجلبون عربات مقطورة صغيرة على شكل بيوت متحركة، مزودة بالمياه ومكيفات التبريد، كل منها تكفي لنوم أربعة، ونويت أن اكون في واحدة منها، نُصبت اليوم. حين سمعتُ بذلك الليلة الماضية، في الكويت، أعطيتُ أوامر لرئيس الأركان باختيار أربعة أشخاص مضى عليهم أطول وقت هنا، ليتمّ وضعهم في أول مقطورة. سوف أمكث هنا، حيث أنا، في الوقت الراهن. إنه عيش بدائي، ولكنه أقل سوءاً مقارنةً بما كان عليه الوضع قبل بضعة أيام. ...أو بما تواجهه القوات.

بدأتُ أصدرُ توجيهات لأتبيّن حقيقة الوضع. إنه كابوس إداري، لكن عليّ أن أتحرك بحذر بحيث لا أُغضبُ جي غارنر (لا أستطيع أن أخسره الآن، بما أنه سيأخذ معه مجموعة من الناس الأساسيين). لكنني سوف أرسي بالتدريج بنية إدارية موازية للعمل جنباً إلى جنب مع إدارته قبل أن أنتقل إلى الأخرى خلال أسابيع قادمة.

تثاءبتُ، وبدأت الكلمات على شاشة الحاسوب المحمول تسقطُ في الغبش.

"هذا كل ما يمكنني القيام به الليلة،" كتبتُ. "حبي للشقراوين!" الشقراء الثانية في حياتي كان كلبي، ميني.

سحبتُ الناموسية جانباً، وتمددتُ فوق الشرشف الرطب. وبالرغم من أن رأسي تراخى تدريجياً فوق الوسادة القاسية، الا ان النوم لم يأت بالسرعة التي كنت أنتظرها. عوضاً عن ذلك، رحتُ أستلقي في الظلام الخانق، مصغياً للأصوات الغريبة المنبعثة من المقاطعة. تشويش من راديو عسكري. هدير مولّدات. محرّك شاحنة كبيرة يبدأ بالإقلاع.

رشقةٌ من أسلحة خفيفة تمزّق صمتَ الليل. خيطٌ من الطلقات المتقطّعة، العالية، عبر النهر، تتردّد أصداؤها على الجدران ...بل حتى اندلاع أعلى لسلاح أوتوماتيكي كامل. أصوات نيران أخف. ثم انبجاس آخر لسلاح أوتوماتيكي.

سحبتُ غطاء الناموسية، ورحتُ أبحث عن سمّاعات الطائرة (.C-130حين تراكمت الرغوةُ في أذني، أصبحت ضجّة النيران الرشاشة محتملة.

ما الذي يجري؟ قلتُ في نفسي. لصوص .. مجرمون؟ كان مستحيلاً التأكّد من هذه الغرفة المظلمة، المعزولة.

ثم تذكرتُ عبارة مُطمئنة من إحدى الايجازات الصحفية العسكرية التي كنتُ قد تلقيتها خلال الأسابيع الماضية. "لا توجد أية إشارات عن مقاومة منظّمة للاحتلال، ولا دليل على وجود بنية قيادة وتحكّم لهذه الحفنة من العراقيين، الذين يطلقون النار على قواتنا."

مع هذه الأفكار المريحة، انزلقتُ في نومٍ مؤرق.

الفصل الثاني
تولّي المسؤولية

بغداد
أيار ١٣-١٦، ٢٠٠٣

استطعتُ أنّ أسرق أربع ساعات نوم متواصلة، في ليلتي الأولى في بغداد، قبل أن أصحو على حين غرة، في البرودة النسبية، قبل الفجر. كان المؤذن يدعو المؤمنين من مئذنة قريبة إلى صلاة الصبح. ومن دون مكبرات صوت- والسبب انقطاع الكهرباء- كان الأذان يتعالى صافياً، في نصف الضوء.

لم يكن يوجد جهاز تمرين للجري، لذلك سحبت قميصي وحذاء الجري، وانضممتُ إلى حارسي الشخصي، إريك، وهرولنا بضعة كيلومترات سريعة على طول الممرات الحصوية، عبر الحديقة المليئة بالأعشاب، وغابة النخيل خلف القصر. آمالي بحمّام نظيف انتهت ببضع قطرات ضعيفة من الماء الصدئ، في توالي البول. أخذتُ حمّامي عبر إمساك قنينة ماء بلاستيكية بيد، فيما رحتُ أفرك باليد الأخرى. بدوتُ سخيفاً في المرآة الكبيرة ذات الإطار المذهب، قبالتي.

بعد عشر دقائق لاحقة، دخل كلاي وهيوم مكتبي. لم نكن قد أقمنا اتصالاً مباشراً مع واشنطن بعد، فكان عليّ أنّ أتبع تقليد سلك الخارجية، باستعراض البرقيات الآتية ليلاً.

كان كلاي أيضاً يشعر بالامتعاض. كان كل من (مكتب إعادة الإعمار والمساعدة الإنسانية) و بعثة (سلطة التحالف المؤقتة)، يعجّان بالمتطوعين الذين كانوا يصلون الى بغداد دون أن يعلنوا عن أنفسهم مسبقاً، مساهمين بإضعاف بنيتنا التحتية، المثقلة بالمتطلبات لتوّها. كنا بحاجة لأن نمارس بعض التحكّم على هذا التدفق من الناس، لذلك طلبت من كلاي أن يرسل برقية إلى واشنطن، فحواها أن لا يأتي أحد إلى بغداد من دون موافقتنا المسبقة.

"لا يمكن إرسال برقية رسمية من هذا المكان، جري،" قال كلاي.

"أعرف. ولكن علينا أن نبتكر بعض الوسائل."

لم يمض وقت طويل حتى علمنا أنّ مئات المدنيين ممن يعملون لصالح سلطة التحالف المؤقتة كانت لديهم اتصالات غير رسمية، عبر الرسائل الالكترونية، ومن حواسيبهم الشخصية، بمساعدة شبكة الاتصالات العسكرية، مع البيروقراطيين في الولايات المتحدة. وبسبب كونه سفيراً مخضرماً، استطاع كلاي أن يرى حالة الفوضى الكامنة- وإمكانية قلة الالتزام- في هذا النظام المُخترع.

سلّم كلاي وهيوم كومة من التقارير، والخرائط، وصور الأقمار الصناعية، التي تم جمعها من المكاتب المتنقلة لمكتب إعادة الاعمار، الموزعة في كل أرجاء هذا البناء الضخم.

كنت أعلم أنه يمكننا أن نعرف المزيد عن الطبيعة الحقيقية للمنظمة، وسجل أدائها، عبر غربلة وثائقها "داخل البلاد"، بدل استشارة رعاتها ومستشاريها على بعد ثمانية آلاف ميل في واشنطن.

"طلبتم منا تحليلاً سريعاً،" قال كلاي، واضعاً الأوراق على مكتبي. "هذا هو."

"كما يقولون،" أضاف هيوم، "لم تجرِ الأمور تماماً وفق الخطّة."

"الكثير من المفاهيم الجوهرية المسبقة والخاطئة، يا جري،" قال كلاي.

وبالرغم من أنه سيكون هناك تكهنات حادّة، واسعة النطاق، حول "الأخطاء" التي ارتكبت بعد انهيار الجيش العراقي، علمنا ذلك الصباح أنه لم يكن هناك لغز بخصوص النتائج الحقيقية للأحداث.

راجعتُ تلخيصاً موجزاً عن التخطيط الذي سبق الغزو.

قبل أن تبدأ قوات التحالف حربها الأرضية في ١٩ آذار، ٢٠٠٣، كانت المسؤولية عن "عمليات ما بعد الحرب" قد نُقلت من يد الجنرال تومي فرانكس، وأوكلت إلى مكتب البنتاغون الجديد (إعادة الإعمار والمساعدة الإنسانية). في كانون الثاني من عام ٢٠٠٣،- بعدما وصلت عملية التخطيط مرحلة متقدمة- عيّن رامسفيلد الجنرال المتقاعد جي غارنر مديراً لمكتب (إعادة الإعمار).

كان سبب وجود المنظمة، جوهرياً، وكما يدلّ اسمها، هو الإشراف على عمليات الترميم للبنية التحتية الحيوية في العراق، المتضررة بسبب الحرب، مثل حقول النفط، المستشفيات، الطرق، وشبكات الاتصالات. أولوية أخرى هي تجنب كارثة إنسانية- مجاعة أو وباء- بين الملايين من النازحين الذين كان يتوقع هجرتهم خلال ما كان يمكن أن يكون شهوراً من القتال. وبالرغم من أنها كانت رديفاً لقيادة التحالف المركزية، كانت المنظمة تقدّم تقاريرها مباشرة إلى مكتب وزير الدفاع في البنتاغون.

كان غارنر قد قاد عملية إنسانية عاجلة في عام ١٩٩١، وأنقذ حياة الآلاف من اللاجئين في الجبال الثلجية لشمال العراق، بعد أن أطلق صدام حسين يد جيشه ضدّ المتمردين الأكراد، بعد وقف إطلاق النار في حرب الخليج. ولكي يقوم بالإعداد لإعادة البناء الأولي، والمساعدة الإنسانية في ٢٠٠٣، كان غارنر يملك الصلاحية لتجنيد حوالي ثلاث مائة إداري وخبير. كان من المقرّر أن يكون مكتب إعادة الإعمار قوة رد فعل سريعة، أو كتيبة إطفاء، مسؤولة عن تلبية حاجات مباشرة. إذا كان صدام حسين قد خرب حقول نفط العراق، فيقع على عاتق المكتب إخماد النيران، وحماية الآبار. إذا دفع القتال الطويل أفواج النازحين خارج المدن باتجاه الصحراء الفارغة، كان موظفو غارنر مهيئين لإيوائهم وإطعامهم داخل مدن الخيام.

"قلت بيدو أن غارنر وجماعته بدأوا يعملون على مدار الساعة ما إن وطأت أقدامهم أرض الكويت في شباط".

بالإضافة إلى طاقم إصلاح حقول النفط والعمّال المشرفين على اللاجئين، كان فريق مكتب إعادة الإعمار يضم مهندسين مدنيين وخبراء إداريين وبنية تحتية. وكان المكتب يضم أيضاً بعض الخبراء السياسيين في فريق "حكم"، يقوده السفير رايان كروكر، نائب مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى. كان رايان موظفاً صاحب تجربة واسعة في سلك الخارجية، وشغل منصب السفير في سوريا والكويت ولبنان. وقد أمضى سنوات عديدة في سفارتنا في بغداد في أواخر السبعينات، وهو يتحدث العربية بطلاقة.

وبالرغم من أن الكثير من التقارير الصحفية زعمت بأن البنتاغون قد "أقصى" وزارة الخارجية من المشاركة في إعادة إعمار العراق، إلا أن وجود مسؤول مجتهد ومثابر مثل كروكر، وعشرات آخرين من السلك الخارجي، إضافة إلى كبار الموظفين معي، يُظهر أن مسؤولي وزارة الخارجية كانوا منخرطين، عميقا، بعد سقوط بغداد.

بعض الأحيان، وبعد وصولي إلى بغداد، كنت أقرأ تقارير صحفية عن دراسة أعدتها وزارة الخارجية حول مستقبل العراق، تزعم بأن الوزارة قدمت خطة متكاملة عن النشاطات في البلاد، بعد انتهاء الصراع. كان كروكر أحد المساهمين بشكل كبير في الدراسة، فسألته إن كانت هناك "خطة" عملية فيما يتعلق بعراق ما بعد الحرب. "اجابني:كلا، على الإطلاق،". كانت غاية الخطة تحريض الأمريكيين العراقيين على التفكير بمستقبل وطنهم بعد الإطاحة بصدام. "لم تكن أبداً مقصودة كخطة لما بعد الحرب،" لاحظ كروكر. وحين أُتيحت لي الفرصة لقراءة الدراسة، المؤلفة من خمسة عشر مجلداً، وافقته الرأي.

وإضافة إلى اعتماده على وزارة الخارجية، كان غارنر يأمل بأن يستميل موارد من وكالات حكومية أخرى، أنى وحيثما كان يتطلب منه الأمر ذلك.

"المشكلة الوحيدة التي لم يستطع غارنر أن يجد لها حلاً هي المجهول." قال هيوم. والمجهول الأكبر، عندئذ، في شباط، هي التكهنات فيما إذا كانت الحرب ستندلع، وأنّ احتلالاً سيعقبها. كان الافتراض المقبول من الجميع- أنّ العراق طور وخزّن أسلحة دمار شامل في تحدٍ لمجموعة من قرارات الأمم المتحدة- هو القضية الأساسية قبل الحرب، وسبب الحرب (casus belli.).العديد من الأعضاء الكبار في إدارة جورج بوش، بمن فيهم وزير الخارجية كولن باول، كانوا يتمنون أن تنجح الديبلوماسية الدولية في نزع سلاح العراق، والإطاحة بالبعثيين.

لو كان بإمكان المنشقين العراقيين الإطاحة بصدام حسين، وولديه عدي وقصي، وآخرين من مسؤولي حزب البعث، ممن تلطخت أياديهم بالدماء، أو نفيهم خارج البلاد من دون غزو، لكانت مهمة مكتب إعادة الإعمار قد تقلّصت إلى حد بعيد. لا حرب، لا أضرار معركة، أو نازحين. حسب هذا التصور المتفائل، ستكون حكومة ما بعد التحرير، التي يتشكّل قوامها من مجموعة من المنفيين العراقيين، الذين سيستلمون السلطة من النظام البعثي، ستكون قادرة على إدارة البلاد مباشرة.

وهكذا، عندما قام جي غارنر باستمالة الناس والأموال من الوكالات الحكومية، في بداية عام ٢٠٠٣، أخبره البيروقراطيون عندئذ بكل أدب، "ارجع إلينا وتأكّد من أن تكون لديك طلبات محددة."

حين بدأت الحرب في التاسع عشر من آذار، وسقط نظام صدام، بعد ثلاثة أسابيع لاحقة، وجد غارنر ومنظمته نفسيهما يتيمين، وقد رُمي بهما في خضم مسؤوليات لم تكن متوقعة، ومن دون موارد كافية، سواء أكانت بشرية أم مادية.

سحبتُ صورتين لأقمار صناعية من كومة الوثائق أمامي. حقول نفط الرميلة في الجنوب، التي استهدفها البعثيون بالتخريب، كانت قد نجت، باستثناء أضرار خفيفة، لأن قوات القيادة المركزية الأمريكية كانت قد استولت على الآبار المفخخة، قبل أن يتلقى العراقيون أوامر بتفجيرها.

في أمكنة أخرى، كانت الأضرارُ الجانبيةُ للبنية التحتية التي تسبّبت بها المعارك ثانوية نسبياً لأن قوات العدو من الحرس الجمهوري قد اختارت أن تقاتل على طول ضفاف وقنوات النهر في جنوب العاصمة- ولم تحوّل المدينة إلى "حصن بغداد"، كما كان يخشى بعض المخططين العسكريين. وكما كنتُ قد علمتُ في أول اجتماع لكبار المسؤولين في قيادة التحالف المؤقتة، فإنّ قوات التحالف لم تستهدف محطات الطاقة. لكنّ الشبكة الكهربائية في العراق كانت في طور الانهيار، بسبب سنوات طويلة من الإهمال، وبسبب استخدامها، مؤخراً، كسلاح بدائي في عملية القطع والوصل المتكررة أثناء الحرب.

وحيث أن القتال " بالوحدات الكبرى"، لم يستمرّ لأكثر من واحد وعشرين يوماً، وليس شهوراً، وحيث أن قوات التحالف كانت تعبر المدن والقرى بسرعة في طريقها إلى بغداد، فإن طوفان النازحين لم يتحقق أبداً. ناهيك عن أن صدام حسين كان قد أمر، قبل الحرب، بتقديم مؤن لكل العراقيين، تكفي لثلاثة أشهر، تضم مواد غذائية أساسية، (طحين، أرز، حبوب، زيت للطبخ)، وبالتالي لم تكن المجاعة خطراً محدقاً هي الأخرى.

"قلت: أيها السادة، إنّ جوهر المسألة لا يكمن في أننا لم نخطط. المشكلة هي أننا خططنا، وأسأنا تقدير المستجدات".

"قال كلاي: حسنٌ، لا شيء يماثل بدقة التقديرات المتأخرة." .

"هذه ليست الخطة الوحيدة الأفضل التي ضلّت طريقها." قال هيوم، وناولني مصنفاً أحمر الأطراف، يضم ملفاً سرياً للغاية.

يتبع

رامسفيلد

صدام حسين

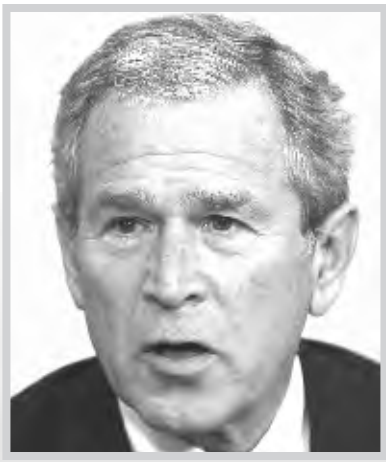
جورج بوش

بريمر مع زوجته